«إن وعي الذات عند البطل، وهو يحتوي مجموع عالم الأشياء في الرواية، لا يمكنه إلا أن يُحاوِرَ وعياً آخر، كما أن حقل رُؤيته، لا يمكن أن يوضع إلا بجانب إديولوجية أخرى، وأمام هذا الوعي الذي يتلبس بكل شيء، فإن الكاتب لا يمكنه إلا أن يضع في المقابل عالماً موضوعياً، وهو عالم أنماط الوعي الأخرى ذات القيمة المساوية»[152].

إن التحليل الذي يقوم به «باختين» لأعمال «دوستويفسكي» الروائية، ليس له فقط قيمة تطبيقية، ولكن له أيضاً قيمة «نظرية»، لأن «باختين» يريد أن يؤيد آراءه عن الطبيعة الخاصة للفن الروائي، إذ يرى أن الرواية لم تنشأ، ولم تتطور إلا في ضوء تعددية الصوت (Polyphonie) الإديولوجي. وقد أمكنه أن يبلور ـ أثناء دراسته لروايات دوستويفسكي ـ مفهوماً على غاية من الأهمية، هو مفهوم «الحوارية» (Dialogisme)؛ إنه مبدأ أساسيٌّ في تحليل طبيعة الرواية وتفسيرها، كما ينتقد «باختين» اعتماداً عليه، وعلى مفهومين متقاربين معه، وهما تعددية الصوت، وتعددية اللغة (Plurilinguisme polyphonie)، مناهج الأسلوبية التقليدية التي كانت تُسْتَخْدمُ في دراسة الرواية، القواعد البلاغية التي وُضعت في أصلها لدراسة الشعر. مع أن الشعر في نظر «باختين» يُعبِّر بشكل أقوى عن الأحادية الفردية[153]، ويرتبط شديد الارتباط بالذات المبدعة. أما الرواية فهي فن ذو طبيعة شديدة الاختلاف، إنه يميل إلى الطابع التركيبي، ويستفيد من كل الفنون ويستقطب مجموع الأصوات الاجتماعية. فإذا كان الشعر يرتبط بالقوى اللغوية المركزية، ويستخدم المفردات المقبولة لدى أغلب أفراد الهيئة الاجتماعية في زمن معين، فإن الرواية ترتبط بالقوى اللغوية الطّاردة، أي باللهجات، ومختلف لغات الفئات الاجتماعية الموجودة في الواقع، حتى تلك التي لا يُعترفُ بها على المستوى الرسمي. يقول «باختين» بهذا الصدد:

«إذا كانت التنوعات الرئيسية للأنواع الشاعرية تتطور داخل تيار القوى المركزية (Forces centripêts)، فإن الرواية، والأنواع الأدبية النثرية قد تشكلت في تيار القوى اللّامركزيّة والطاردة (Forces décentralisatrices et centrifuges). وفي الأثناء التي نجدُ فيها الشعر يضع حلاًّ على المستويات السوسيولوجية والرسمية لمشكلة التمركز الثقافي والوطني والسياسي لعالم التعبير الإديولوجي، فإنّنا نجد في الأسفل أي في مدن القصدير، وفي التجمعات الشعبية تردُّداً لأصداءِ تعددية اللغات من قِبَل المهرِّج، هذه التعددية التي

---

(152) Ibid., P. 85 - 86.

(153) ان التمييز الذي أقامه باختين بين الملحمة (باعتبارها شعراً)، وبين الرواية كفن متعدد الأصوات له علاقة بالموضوع الذي نناقشه هنا. انظر كتاب باختين: **الملحمة والرواية** ترجمة د. جمال شحيد. وانظر أيضاً كتاب الفكر العربي، 3، ط: 1، 1982. وخاصة الصفحات: 1- 21 - 32 - 34 - 54 - 56 - 61